خالد ابو خالد

قرطبة في هجرة صقر قريش

عندما سقط العلم العربي على ظله
صحت في البرق
فانشق عنك بكاء .. وبدرا
وكان زحام الشوارع نوما مريضا
يحدق في الواجهات .. ويمشي
وكانت شظايا الدفاتر تجرح وجه البساتين حينا
وتجرحني
والمقاهي تفض بروادها
والحديث عن الليلة
الحالة
الوطن المستباح
وعن قصة الحب .. والحرب
عن صدر بائعة اليانصيب
وعن أم كلثوم
والجسد المتعب الذهبي
وعن ليرة للسجاير .. والخبز
عن قصف عمان
والناس فيها يصيرون مشتلة للوباء
ويندفق الدم تحت القباب
وتحت العباءات
يشربه الغائبون مع الشاي
والخمر
ثم تلوحين ـ ما بين أشرعة النار
والقصف ـ امرأة
حلما ..
وخلاصا
جلسنا على زمن طارىء من زمان الصبا
ففرحنا
ابتسمنا
ودار الحديث القصير على نفسه .. وصمتنا ..
فما قلت شيئا عن الحب
أو قلت شيئا عن الموت ..
أسمع صوتي
ـ ان خذلتني دمشق
توجهت نحوك بعد فلسطين ..
قبل فلسطين
فيها
فما خذلتني
تناولت قهوتنا .. وقرأت الكتاب ..
افترقت عن الحلم
كان المساء حزينا
وكان الشتاء يجيء الينا على مزنة كالرماد
فنبتل
ثم نذوب كأن لم نكن
والخليفة مدثر بردتي
وشعاري على ترسه
او على حافر الفرس الاعجمي
يؤرخ صك التخلي عن البندقية
والشهداء
وعن تضحيات الميليشيا
وعمان
في الظل أوجعني وخز صارية كسرت
صحت .. ما انتبهوا
لوّن الدم وجه الفرات .. فما انتبهوا
في الطريق الى سيلة الظهر (١) جمجمتي فرعت كتبا
وجسورا
هوت قبلها أمس الوية
خلعت جندها في ثياب الصبايا اللواتي هربن من
الذبح
ـ يا أيها النائمون على دمهن
انصتوا
انني الدم يسكنكم انهرا
مرة عندما القتل يبدأ
أخرى قبيل الولادة
فلتتحسس شراييكم دورتي
بين موتي .. وبين مخاض العواصم
والنخل
أنسلّ
كانت دمشق التي ودعتني .. وما زلت فيها
تصدّ عذاباتنا بالليالي الطوال
وبالحب
مسكينة .. هرّبت شارتي
لهثت تتمنى عليّ الرحيل اليك
وتنذرني انهم يتبعون خطاي
يسدّون كل الدروب التي انفتحت بغتة
قرطبة ...
آه
... والمدن العربية تغطس في الدم
لكن وجهك كان حبيبا
وكان بعيدا .. كما الشمس
كان قريبا
فلوحني وهجها في الصحارى التي أودعتني الى النهر
كانت يدي تستطيل أصابعها
في الفضاء الذي بيننا
كنت أهوي
وأنحت في قاسيون الكلام الذي لم أقله
وكل الوجوه التي غادرتني على ضفة الفور
أرتاد أرصفة النشرات
وأرصفة الذكريات
هنا الصوت ، والبحر يختلطان
وينحلّ صمت البنادق حولي
وينهض تشرين بوابتين الى القدس واحدة
واليك ... اليك ..
ـ انتبه
ـ أين تمضي ؟
ـ هنا القدس
تشتعل الارض .. سكينة تتحول
ترسم أدخنة المدفعية والدم خارطتي
للسهوب التي عرفتني
وأحببت فيها الطيور التي لا تهاجر

---

(١) قرية الشاعر المحتلة .

اني توقفت
أملأ كفيّ ماء
وأشرب
للصخر ظهري
ووجهي جنوبا
ـ فلسطين
تنصبّ في داخلي
أمطرت
والرذاذ المورّد يفرق ناصيتي
وعيوني
ومتعبة رئتي
فالحصار شديد
هنا زمني .. قرطبة
لا تلومي الرياح التي حملت جسدي
ـ أيها الضوء
انك تشبه ومض القذائف في غور بيسان
لا تنطفىء
انني أتلمسك .. الآن
بيني وبينك سجن
ودبابة
وكمين
وبيني وبينك جند الخليفة
والغزو
أكمن في الظلّ
لكنني اذ تلوح على الافق عيناكِ
أربح معركة بالمسير
ولو خطوتين
بدون الجيوش التي ذبحتني
وراحت تطارد رأسي بأعلامها السود
لحظة ان كنتِ أنت تمدين لي أرض مصر لاعبر
نحو الشمال البعيد اليك
واني بصير بأنك منفاي
كم أنت مرهفة حيث أنت
وكم أنت صافية
وبعيد أنا
العطش البدويّ الى الماء
هذا صراخي
ولو انه الصمت
محظورة كلماتي التي خبأتها حجارة حوران
فاحترقت مثل قلبي
فلا تبكني
قدري أن أسمّى ثلاثين اسما
ولا يتبدل وجهي
وأن أتنقل وحدي
وفي راحتي خط انك منفاي
أو جنتي
قرطبة
هل تصيرين لي وطنا
كيف
لي وطن تعرفين مذابحه ..
حيث أهلي ..
وأمي تحلّ جدائلها
وتغني لصقر قريش
وتبكي عتابا
لكل الذين يعيشون حبا
يموتون فاجعة
... وطني ..
امتلأ الكأس
أشرب نخبك ..
ها ان قلبي يغادرني ..
بينما تفتحين ذراعيك لي
أقتربي
انني أتعرّى سوى من سلاحي ..
وشعري ..
وأخطو على البحر
أخطو
امنحوني لفافة تبغ
وعود ثقاب
فتحت ذراعي جرحي الذي نبشوه
فأغلقته بالمرايا
توكأت فيه عليك
فكانت ذراعك تجتاز افريقيا رسلا يفرشون
المحبة والدمع
جسرا على الاطلسي
فأبحر
بحارتي يشهدون عذابي
فيطفو على الموج بعض فلسطين
كفي ..
وزنبقة
ووعود
ينقط في شفتي مطر ، ورصاص
فأفتح
أسترق السمع
أغلق جفنيّ .. تنهمر الطلقات .. تلويت
ـ أيلول مذبحة في المشارق
ـ مذبحة في المغارب
ـ ينسى .. يموت بعيدا
وكل الحجارة
والدم
واللحم
والنار
ذاكرتي
آه .. أيلول .. عمان ..
عمان .. أيلول
أحلم انك لي .. معبر .. قرطبة
مرحبا
كيف أبدأ ..؟
كيف أقول لك ابتسمي ..
رغم ما أرتدي من جراح العشيرة .. والارض ؟
هل تعرفين ملامح صقر قريش ..؟
وهل أنت
أنت ..؟
وهل ..؟
لا تقولي :
ـ وصلت
فها قدمي تتلمس درب فلسطين
فهو يضيء ..
أواصل ..
كل الدروب اليها تمر على شاطىء الاندلس